عناية المستشرق غاريز ديم بمصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه

أ. عبد الله عمـــاري
مخـــبر الموروث العلمي
والثقافي لمنطقة تامنغست
المركز الجامعي لتامنغست
a.ammari1984@yahoo.com

ملخص البحث

سأسعى في هذه المداخلة إلى الوصول إلى ما قدمته دراسة ديم في محاولته لتحديد مصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه، مقدماً في ذلك نبذة عن حياة المستشرق غاريز ديم، ومعرّجاً على العلاقة بين مصطلحي الاسم والصفة، وصولاً إلى العناية التي قدمها ديم للمصطلحين.

OOO

مقدمة:

تعـد إشكالية المصطلح فـي سائـر العلوم ذات أهمية كبرى،إلاّ أن القدامى-العرب-لم يعتنوا بها كثيراً خاصة في مجال النحو، حيث كان الجدل قائماً حول المفاهيم أكثر من قيامه على المصطلح في حد ذاته.

كما أن دراسة المصطلح النحوي ظلّت بكراً، على الرغم من أن أكثر العلوم قد جُمعت مصطلحاتها ودُوِّنت منذ أمدٍ بعيدٍ، وسبب ذلك يرجع لا محالة إلى صعوبة تتبع المصطلح النحوي منذ أيام أبي الأسود الدؤلي حتى أيام النحاة المتأخرين سواء عند البصريين أم عند الكوفيين، وهذه الصعوبة منبعها أيضاً كثرة المصطلحات واختلافها.

وعلى هذا الأساس ظلَّ المصطلح النحوي بعيداً عن أيدي الدارسين العرب إلاّ قليلاً، ليُفسح المجال في الأخير للمستشرقين والخوض في غمار هذا الميدان والعناية بإسهاب في قضية المصطلح النحوي، وكان لهم ذلك.

وهو موضوع هذه المداخلة التي ارتأيت من خلالها أن أُلقي الضوء على المستشرق غاريز ديم وعنايته بمصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه، فمن

يكون هذا المستشرق ديم وإلى أي مدى استطاع أن يسلط عنايته بمصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه

نبذة وجيزة عن حياة المستشرق غاريز ديم:

هو ألماني من مواليد الثاني عشر من شهر جانفي سنة أربعة وأربعين بعد التسعمائة والألف، عاش مرحلة صباه الأولى في ميونيخ، وتلقى العلم في مدارسها منذ كان في الخامسة من عمره، حتى أتّم دراسته الثانوية في صيف عام ثلاثة وتسعين، ليلتحق بجامعة ماكسميليان في ميونيخ، ودرس فقه اللغات السامية، والدراسات الإسلامية، بالإضافة إلى فقه اللغتين اليونانية واللاتنية، وعلم اللغة العام والهندي الجرماني.

وتحصل على درجة الدكتور بامتياز من الجامعة نفسها في عام ألف وتسعمائة وثمانية وستين، ببحث سماه: كتاب الجيم لأبي عمر الشيباني، وتولى مهمة التدريس في هذه الجامعة سنة كاملة لينتقل بعدها إلى بيروت ويعمل كباحث مساعد في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، وفي سنة إحدى وسبعين عاد إلى ألمانيا وعمل أستاذاً مساعداً للغات السامية في جامعة ميونيخ، ونال درجة الأستاذية في الدراسات العربية سنة اثنين وسبعين، وبعد أربع سنوات دُعي ليتولى كرسي الأستاذية في جامعة كولونيا.

له عدة أبحاث عن ظواهر لغوية في العربية الفصحى؛منها هذا البحث الذي قام به في مصطلحي الاسم والصفة عند نحاة العربية[1].

دراسة ديم لمصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه

1_ إشكالية المصطلح وعلاقة مصطلح الاسم بالصفة:

تعريف المصطلح لغة: كلمة المصطلح في اللغة العربية هي مصدر ميمي للفعل (اصطلح)، مأخوذة من أصل المادة (صلح)، وحددت المعاجم العربية دلالة هذه المادة بأنها ضد الفساد، ونقول مصالحة وصِلاحاً، وأصَّالحا وتصالحا واصتلحا واصطلحا عليه[2].

اصطلاحا: هو اتفاق القوم على وضع اللَّفظ بإزاء المعنى[3]، وهذا الاتفاق يكون من قِبلِ المختصين،فإن تمّ هذا الاتفاق بين جماعة الفقهاء نتج عنه مصطلحاً في الفقه، وإن كانوا محدّثين تفتَّق عنه مصطلحاً في الحديث، وإن كان بين النّحاة صنعوا مصطلحاً نحوياً؛وهذا الاتفاق الأخير الذي يتم بين جماعة النحاة على استعمال اللفظ في التعبير عن الأفكار والمعاني النحوية هو ما يُعبَّرُ عنه بالمصطلح النحوي[4].

وتأسيساً على ذلك، فإنّ الاسم، والفعل، والحرف، والفاعل، والمفعول بأنواعه، والصفة وغيرها هي مصطلحات اتفق النحويون على تسميتها لألفاظ معينة، غير أن هذا الاتفاق قد لا نجده عند غيرهم بالمعاني الاصطلاحية نفسها، بل يختلف هؤلاء النحاة في تسمية هذه الألفاظ، ومرّد ذلك إلى المناهج العلمية التي اتسمت بها كل طائفة منهم، ولهذا كان للبصريين مصطلح وللكوفيين مصطلح يختلف كل منهما عن الآخر[5].

كما يمكن القول إنّ هذه المصطلحات الكوفية التي ظهرت -كما هو معلوم- متأخرة عن المصطلحات البصرية، هي مصطلحات أُريد بها مجرد الخلاف على مدرسة البصرة، ودليل ذلك موقفهم من ألقاب الإعراب والبناء التي وضعتها المدرسة البصرية، فميّزت بين علامات الإعراب وعلامات البناء، فجاء الكوفيون وفكّروا طويلاً في إيجاد لقب أو اسم جديد لها، حتى إذا أعياهم ذلك اضطّروا إلى قلبها، فجعلوا ما كان علامة للمعرب علامة للمبني، وما كان للمبني علامة للمعرب[6].

2_ علاقة مصطلح الاسم بالصفة:

يعد مصطلحا الاسم والصفة من أهم المصطلحات النحوية التي تعددت حولها الآراء بين النحاة قديماً وحديثاً.

فالاسم في اللغة هو لفظ مشتق من السّمو عند أهل البصرة، وهو العلو؛فيقال سما يسمو سُمُّواً، ومنه سُميت السماء سماءً لعلوِّها، في حين يرى أهل الكوفة أنه مشتق من الوسم بمعنى العلامة[7].

كما أن الصفة في العربية هي مصطلح قديم استعمله النحاة في كتبهم على الإطلاق؛ فنجد سيبويه يوظّف هذا المصطلح في الكتاب توظيفاً غير مستقر، فقد أطلقه على الصفة تابعة وغير تابعة في مواطن كثيرة، وأحيانا يُطلق عليه عطف البيان[8].

أما الحديث عن الاسم والصفة كقسمين من أقسام الكلام؛فقد بدأ تقسيم الكلام في وقت مبكرٍ جداً وكان الاتفاق على التقسيم الثلاثي المعروف (اسم وفعل وحرف)، ونلمس ذلك في قول سيبويه: "الكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل "[9].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الصفة لم يجعلها سيبويه ولا النحاة الأوائل قسماً_بذاته_ من أقسام الكلام؛ لأنهم كانوا على وعي تام بأن للصفة

خصائص صرفية، لهذا السبب أدرجوا الصفة ضمن أقسام الاسم الثلاثة (الاسم العلم والاسم المبهم والصفة).

لكن إذا تقدمنا مع الزمن نجد بعض العلماء المحدثين المتأثرين بالدّراسات اللاتينية يجعلون الصفة قسماً مستقلاً بذاته من أقسام الكلام، ومن هؤلاء نجد الدكتور تمام حسّان؛الذي يرى بأن الكلام ينقسم إلى سبعة أقسام هي[10]: الاسم، والفعل، والصفة، والضمير، والخالفة[11]، والظرف، والأداة، وقد حذا تلميذه فاضل الساقي حذوه في هذا التقسيم السّباعي[12].

ومن هنا يمكن القول، إن العلاقة بين الاسم والصفة علاقة عموم وخصوص، فنستطيع القول إن الاسم أعمّ من الصفة، فكل صفة هي اسم لإدراجها ضمن أنواع وأقسام الاسم، وليس كل اسم صفة، لأنه معتبر هو أساس التفرع الذي تفرّعت عنه الصفة والأسماء الأخرى.

وندّعم ذلك بأمثلة الخليل بن أحمد الفراهيدي، التي ذكرها لبعض الأسماء مثل: عمر، جمل، شجر؛ وهي دليل علـــى أن الاسم ما دلّ على مسمى[13]، ولكنه في نفس الوقت يمكن لهذا المسمى أن يُوصف بصفةٍ لاصقةٍ به، لقول الكسائي في تعريفه للاسم بأنه ما يُوصف[14].

دراسة ديم لمصطلحي الاسم والصفة عند سيبويه:

لقد اعتنى المستشرق ديم بهذين المصطلحين، وتمثل ذلك في بحثه الموسوم بـ:الاسم والصفة عند النحاة العرب، وهذا البحث منقول إلى العربية، وقدّم له وعلّق عليه الدكتور محمود أحمد نحلة.

والقارئ لهذا البحث يُدرك إدراكاً تاماً أنه اقتصر في حديثه عن المصطلحين عند سيبويه دون غيره من النحاة؛حيث تتبع كتاب سيبويه وعرّج فيه على المصطلحين، لكن اللاّفت للانتباه هنا أن بحث ديم كانت له عدة مآخذ موجهة إليه بخصوص دراسته للمصطلحين عند سيبويه؛حيث سيطرت عليه منذ البداية فكرة أن الاسم عند سيبويه ما دلّ على مُسمى، على الرغم من أنه على يقين من أن سيبويه لم يُعرِّف الاسم، ولكنه استنتج ذلك من تمثيل سيبويه للاسم بـ: رجل وفرس وحائط، وكلّها دالة على مُسميات، ولما كانت الصفة لا تدل على مُسمّى فقد رتب ديم على ذلك حكماً بأن سيبويه استبعد الصفة من الأسماء.

واستهل بحثه بقوله: "حدّد سيبويه الأقسام الآتية للكلم في العربية: فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"[15]،وأشار إلى أن سيبويه لم يضع تعريفاً واضحاً للاسم، بل مثَّل له فقط برجل وفرس وحائط.

والأكثر من ذلك أنه اتجه في بحثه إلى النّحو الأوروبي؛الذي يُدرج كلاً من اسم المعنى والصفة تحت الأسماء، ثم بعد ذلك صوّب نظره تُجاه الأمثلة الواردة في كتاب سيبويه فوجدها تدل على ذوات – لكن سيبويه يعتبرها أسماء – ليخطر في ذهنه السؤال التالي: أتُعتبر هذه الأمثلة: رجل _فرس _حائط، شبه تعـــــريف للاسم، أم أنها سردٌ عشوائيٌ لأمثلة له[16]

وفي هذا الصدد نجد الدكتور محمود نحلة يُعلِّق على تساؤل ديم، ويرى بأنه يشير إلى أمرين هما[17]:

1/ هو يستبعد أن هذه الأمثلة قد تكون سرداً عشوائياً، وهو أمر لا غرابة فيه، لأن سيبويه لم يكن ممن يسردون الأمثلة العشوائية، وذلك واضح في كتابه.

2/ أنه لم يلتفت إلى ما جاء في كتاب سيبويه من الأمثلة الواردة عن اسم المعنى والصفة، بل اتجه ونظر إلى النحو اللاتيني؛ لكونه يعُدُّ الصفة قسماً أساسياً من أقسام الكلام، بناء على ما لها من وظيفة نحوية وخصائص صرفية منطبقة عليهم في لغتهم، بينما نُحاة العربية لا يَعدّون الصفة قسماً من أقسام الكلام، بل يجعلونها فرعاً من الاسم.

ولم يقف ديم عند هذا، بل تلبث أمام تلك الأمثلة التي أوردها سيبـــويه للاسم(رجل _ فرس _ حائط)، وحاول أن يستشف منها الفكرة التي قام عليها مصطلح اسم عند سيبويه، دون أن يمدَّ بصره إلى سائر ما ورد في الكتاب من أنواع الأسماء، وانتهى إلى أن هذه الأمثلة تتفق مع تصوره – أي سيبويه- الأصلي للمصطلح، وأن إطلاق مصطلح الاسم جاء في صفحات الكتاب على الكلمات التي تدل على ذوات من الوظيفة الاسمية للكلمة بإزاء مسماها، والأكثر من ذلك أنه يرى من وجهة نظره – أي ديم- أن الصفة واسم المعنى لا يمكن أن نعدّهما في الأسماء[18].

لكنه لمّا نظر في كتاب سيبويه وتصفّح أوراقه وجَدَه يَعُدّ كلمات لا تقع على مسميات أسماء، فلم يشأ أن يعدِلَ عن رأيه أو يُعدِّله، بل مضى فيه، وعدّ ذلك نوعاً من التطور في استخدام سيبويه للمصطلح أو اتساعاً فيه[19].

ويبدو جلياً الآن أن هذا الاتساع وذلك التطور كانا في رؤية ديم، ومعرفته بالمصطلح بعد أن أوغل وتتبع صفحات الكتاب، وبالرغم ن ذلك لم يسلم من الوقوع في التناقض والاضطراب، وهذه بعض أقواله خير شاهد على ذلك:

_ يقول: "لا تدخل الصفة عند سيبويه في الاسم، لكنها لا تمثل نوعاً من الكلم بعينه كقسم من أقسام الكلام"[20].

_ ويقول أيضاً: "المصدر عنده مفصول بصفة عامة عن الأسماء، إلّا أن يشير إليه أحياناً باسم الحدث"[21].

_ ونجده يقول كذلك: "فقد ذكرنا من قبل أنه – سيبويه – أشار إلى المصدر في بعض الأحيان بالاسم، كذلك يظهر واضحاً اتساع المصطلح ليشمل الآن أنواعاً من الكلم، غير المصدر، ليست أسماء على الإطلاق، وتتدخل في ذلك إلى حد ما اعتبارات معقّدة شكلية، وتركيبية، فسيبويه يعُدُّ الأنواع الآتية من الكلم أسماء: اسم الإشارة _ اسم الفاعل _ أفعل _ كلمات جامدة معينة "[22].

_ ويقول كذلك: "كل من الصفة واسم المعنى اسم مشروط عند سيبويه "[23].

_ ويقول في موضع آخر:"تنشأ تداخلات مماثلة في طائفة من الكلمات غير المتصرفة التي يمكن أن يدخل جزء كبير منها في مصطلح الأداة، نحو: من، ما، أي، أين، كيف، متى، قط، قبل، بعد، فضلاً عن كلمات مثل حذارِ؛وهي كلها أسماء عند سيبويه مع تقييدها بأنها غير متمكنة "[24].

_ ويقول: "أما أن يكون انتماء مجموعة كاملة من هذه ألأسماء قائماً على هذه الأسس التركيبية، فاستنتاج يؤيده كلام سيبويه نفسه، فـ(قط) في رأيه اسم؛لأنها لو لم تكن اسماً ما جاز لك أن تقول: قطُّك درهمان، فتقع (قطُّ) هنا مبتدأ، وما يقع مبتدأ فيه خصائص الاسم "[25].

_ ويقول أيضاً: "وهذا الاستدلال نفسه الذي أفضى إلى أن تعد (قطُّ) و (أن) و(كم) في الأسماء لا بدّ أن يفترض أيضاً مع (من) و(ما) و(أي) "[26].

_ ومن أقواله: " يعد سيبويه الظروف أسماء، وذلك مقنع في بعض الظروف التي هي أسماء حقيقة، مثل يوم، وليلة، وبكرة، ونحوها، والأمر نفسه منطبق على ظروف المكان، وعلى (قبل) و(بعد)، لكنه لا يصدق على (أين) و (متى) ونحوهما"[27].

و للردِّ على تلك الأقوال المضطربة والمتناقضة، نورد ما قاله الدكتور محمود نحلة معلقاً عليها بقوله: "وظاهر مدى الاضطراب والتناقض الذي وقع فيه الكاتب، فهو يقطع بأن الصفة لا تدخل في الاسم عند سيبويه، ثم

يعود فيقول إنها اسم مشروط عنده، وهو يقرر أن المصدر مفصول بصفة عامة عن الأسماء، ثم يعود فيذكر أنه اسم، وهو يُسلِّم بأن اسم الفاعل اسم، وبأن "أفعل" اسم، وبأن مجموعة كاملة من الكلمات غير المتصرفة عُدّت في الأسماء على أسس تركيبية لا دلالية، ومع أن القياس كان يقتضيه أن يضمّ إليها "أين" و "متى " من كلمات الاستفهام، فقد رفض ذلك وقرّر أن هذه الأسس التركيبية لا تصْدُق عليها،وكيف لا تصْدُق عليها وهي تقع ركناً في الإسناد في نحو: أين بيتك؟، ومتى السفر ، ومثلها في ذلك مثل "من" في نحو: من زيدٌ؟، و"ما" في نحو: ما حاجتك ، والجملة عند سيبويه لا تقوم إلا على اسم واسم، أو اسم وفعل، ولما سأل نفسه – أي ديم -: على أي أساس عُدّت "إذن" في الأسماء، لم يجد إجابة شافية، ولقد حاول من بعد أن يُفسِّر انتمائها إلى الأسماء على أساس دلالي، فاعتسف السبيل حين فسَّر ذلك بالإبهام"[28].

هــذا، وبالرغم من سطوع البرهان عـلى أن المعيار الدلالي الذي احتكم إليه ديم غير صحيح على إطلاقه، وغير مطّرد في القياس، فقد ظل متمسكاً به حتى النهاية، وعزا كل ذلك إلى ضربٍ من التطور والاتساع في المصطلح، فقال في خاتمة بحثه: "لقد حاول هذا البحث إبراز أن لمصطلح الاسم تصوراً يصدر عنه، هو أن الكلمات التي تُطلق على الأشياء تكون أسماء لها، مما أدى إلى أن تستبعد من الأسماء التي تطلق على الأشياء الصفاتُ وأسماء المعنى، تلك التي لا يمكن أن تُعدّ أسماء لأشياء، وفي التطور اللاّحق للمصطلح يمكن أن نلحظ أن هذين البابين تداخلا مع الأسماء عند سيبويه"[29].

لكنّ المتصفح بتمعنٍ في كتاب سيبويه يجده يُصرِّح في مواضع من كتابه بأن الصفات أو المشتقات أسماء، ومن ذلك قوله: "هــــذا باب ما جـــــرى من الأسماء التي تكون صفة مجرى الأسماء التي لا تكون صفة"[30]، وقوله أيضا: " هذا باب إجراء الصفة فيه على الاسم في بعض المواضيع أحسن "[31]، ويقول في موضع آخر: "هذا باب ما يكون الاسم والصفة فيه بمنزلة اسم واحد"[32]، ونجده يقول: "هذا باب ما بنت العرب من الأسماء والصفات والأفعال"[33]، ويسمي باباً آخر بقوله: "هذا باب تمثيل العرب من الأسماء والصفات من بنات الخمسة"[34].

فالصفات عند سيبويه أسماء، وهذا أمر لا شك فيه، لكن ديم لم ينتبه إلى أن الوصف عند سيبويه مصطلح غير مستقر؛فقد يريد به الصفة تابعة أو غير تابعة، وقد يريد به الحال أو التمييز.

وفي ختام هذه المداخلة يحق لنا أن نقول إن ديم وقع على عدد كبير من الأفكار الجيِّدة، لكنه لم يُطوِّرها ولم تأخذ حقَّها من الاهتمام الكامل، ولو أنه فعل ذلك لكان لهذا البحث شأن آخر.

الإحالات:

1 _ ينظر ترجمته كاملة في: آخر رسالته للدكتوراه، نقلاً عن محمود أحمد نحلة، في المصطلح النحوي، الاسم والصفة في النحو العربي والدراسات الأوروبية، ومعه ترجمة لبحث غاريز ديم (الاسم والصفة عند النحاة العرب)، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، دط، 1994، ص85.

2 – يُنظر،مادة(صلح) في: ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تح: عبد الستار أحمد فرّاج ، ط1، 1985م،ج 3، ص 109– 110، و الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، دط، 2004هـ، ص 359، و الفيروز ابادي، القاموس المحيط، تح: أبو الوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2007م، ص 255، و محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب الحديث، الكويت، ط1، 1993م ، ص 253.

3 – يُنظر، محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب، القاهرة، دط، دت، ص10، و عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي (نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1981ْ ص 22، و إيناس كمال الحديدي، المصطلحات النحوية في التراث النحوي في ضوء علمن الاصطلاح الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 200ْ، هامش ص 18، و محمد طبي، وضع المصطلحات، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 1992ْ، ص38.

4 _ يُنظر، عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي، ص 22– 23– 24،و المختار أحمد ديرة، دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1999م،ص 208 – 209.

5 _ المرجع نفسه، ص 208– 209.

6 _ شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، لقاهرة، ط 09، دت، ص 168.

7 _ الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003 ج1، المسألة رقم 1، ص08.

8 _ عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي، ص65.

9 _ سيبويه، الكتاب، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1999،ج1، ص40.

10 _ تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2004، ص86.

11 _ الخالفة هي مصطلح كوفي اطلقه الفراء على اسم الفعل.

12 _ فاضل الساقي، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، القاهرة، 1977، ص214 وما بعدها.

13_ محمود أحمد نحلة، في المصطلح النحوي، ص28.

14 _ عوض القوزي، المصطلح النحوي، 163.

15 _ بحث ديم التابع لكتاب في المصطلح النحوي لمحمد نحلة، ص 89.

16 _ نفسه، ص 89.

17 _ محمود أحمد نحلة، في المصطلح النحوي، ص 9 _10.

18 _ نفسه، ص 10.

19 _ نفسه، ص10.

20 _ نفسه، ص 11.

21 _ بحث ديم، ص96.

22 _ نفسه، ص 97.

23 _ محمود أحمد نحلة، في المصطلح النحوي، ص 11.

24 _ نفسه، ص12.

25 _ بحث ديم، ص 108.

26 _ نفسه، ص 109.

27 _ محمود أحمد نحلة، في المصطلح النحوي، ص12.

28 _ نفسه، ص 13.

29 _ نفسه، ص122.

30 _ سيبيويه، الكتاب، ج2، ص 23

31 _ نفسه، ص46.

32 _ نفسه، 106

33 _ نفسه، ص 364.

34 _ نفسه، ص 441.